الأدب واللغة

من الكائنات الحية

للأديب محمد عثمان الصمدى

ينهض الأدب واللغة تبعا لنهوض الدولة وامتداد سلطانها، ويقوى ساعداها بالقياس إلى قوة ساعد الدولة أيضا. هكذا يقول بعض الباحثين ومؤرخى الآداب والفنون. وقد يكون هذا أو بعضه حقا؛ ولكن من الحق أيضا أن ليس الأمر مقصورا على اللغة أو الأدب أو الفن، وإنما هو ينسحب على سائر مرافق الدولة، وعناصر الحياة فيها، وكل ما من شأنه أن يكون من مقوماتها. ولكنها تختلف ويسبق بعضها بعضا إلى الوجود بحسب الحاجة إليها، والباعث عليها، وبحسب ما يكتنفها من صعاب وعقاب. وأخيرا بحسب قدرة الدولة على الخلق والإيجاد، أو البعث والإحياء. وإنما كان الأدب أسبقها جميعا إلى النمو والازدهار لأنه وليد الفطرة لا يحتاج إليه عناصر العناصر والمرافق والمقومات.. ولأمر ما أجاد الجاهليون الشعر

وقد عجب بعض البحاث من العربية حين قويت واشتد ساعدها فى مدى العصر العباسى كله؛ لأنها لم تأبه لما منيت به الدولة من تدهور سياسى فى القرن الرابع الهجرى. ثم عللوا ذلك بأن الفاتحين لم تكن لهم لغة جديرة بالإحياء. ولأنهم كانوا يتخذون الشعر دعاية لدولهم الناشئة. ولأنهم مع هذا كان لهم تمكن فى الأدب ومشاركة فى فنونه »

ولعل هذا أو بعضه أن يكون حقا. ولكن يجدر بنا أن نلاحظ مع هذا أن الأدب كائن حى كسائر الكائنات الحية. فمنذ أن نمته الدولة بعد الجاهلية، وأصبح يتلقى المؤثرات التى جاءت نتيجة للصراع السياسى وما إليه، صار له من الأغراض والأهداف مالم يكن له من قبل. وما هى إلا أن اتسعت هذه الأغراض وامتدت على مدى الأيام. وأصبح كثير من الشعراء يطرقونها لا لشئ إلا أنها موضع للاجادة والتفوق والتبريز. وبعبارة أخرى أصبحت ضرورة فنية دون أن يكون لها من الحياة ما يوحى بها أو يحمل عليها. وإنما يوحى بها ما سبقها من آثار جاءت فى أول الأمر نتيجة لمؤثرات الحياة الواقعة، وما تتمخض عنه من أحداث. ثم أصبحت هذه الآثار تؤثر بدورها كالحياة الواقعة فى الشعراء وأرباب البيان. ومن ثم فقد صار للأدب حياة قادرة على أن توحى وتلهم، وعلى أن تمس النفوس فتفجرها أريحة واهتزازا وطربا، وعلى أن تأخذ بالعقول إلى حيث تفكر وتقدر. وقليل أولئك الذين يفرضون أنفسهم وأدبهم عليها وعلى الأدب فرضا. وهم مع ذلك لا يكاد يخلو الأمر من أن يكونوا متأثرين تارة ومؤثرين أخرى. وإلى هذا فإن حياة الأدب ككل حياة يختلف عليها ما يختلف على سائر الكائنات الحية من قوة وضعف وتطور فى الغرض والوسيلة والاتجاه. إلى غير ذلك من ملابسة الزمن ومخالطة الحضارة التى يستمد الأدب جدته منها، والتى تسمه آخر الأمر بميسمها فى اللفظ والمعنى والهدف والأداء. وإذا جاز لنا أن نشبه الأدب بالإنسان قلنا إنه يلابس الأدوار التى يلابسها الإنسان من طفولة فصبا فشباب فكهولة فشيخوخة فموت. ولسنا نريد أن نقول إن الأدب عابث لاغ فى طفولته كالطفل. أو أنه قوى طاغ فى شبيبته كالشباب، وإنما نريد أن نقول إن الأدب كائن حى نام يحمل فى أدوار نموه عناصر الموت والفناء. وقد تطول أو تقصر إحدى هذه المراحل أو كلها مجتمعة بالنسبة إلى عوامل حضارية وأخرى ثقافية واجتماعية، وإن كان لا تخلو كل مرحلة من آحاد يعيشون بأذواقهم وعقولهم فى بيئات سلفية أو مستقبلية. ففى عهد الطفولة تظهر الفطرة بجميع مميزاتها من حسنات وسيئات. لا تكاد ترتفع ببصرها إلى السماء ولا تهبط إلى الأغوار، وإنما تتخذ ما يحيط بها من حيوان ونبات وجماد موضوعا للقول وأداة للتمثيل والتخييل. وهى لا تنزع إلى غايات اجتماعية أو إنسانية. ولا يعدو بصرها إذا امتد شؤون القبيلة وما هو من ذلك بسبيل. تؤثر الكرم والوفاء؛ وتأنف أن تتقيد بشى إلا ما يقيد به نفسه الرجل الحر. وأنت لا ترى عندها فرقا كبيرا بين الإباء والجماح. أو بين الكرم والتضحية. أو بين الوفاء والفداء. أو بين الشجاعة والتهور. أو بين الصراحة والفظاظة

والقطاطة . وبالتالى فهى تتسم بالصدق ودقة الملاحظة وحرارة الإحساس ومعاطفة الأمة عطافا قلما نشعر بمثله نحن الآن . وهى نحن حنينا قويا إلى تحقيق قول القائل

أطيب الطيبات قتل الأعادى واختيال على متون الجياد
ورسول يأتى بوعد حبيب وحبيب يأتى بلا ميعاد

ثم إن شعر الرثاء فيها لا نكاد نجد له مثيلا فى الصدق والحرارة فى سائر المراحل والعهود التى تليها جميعا . وهى جامدة لا تكاد تتطور إلا بحدث يهزها هزا عنيفا ، وينال منها ومن تقاليدها وعرفها نيلا شديدا . ولكنها تقاومه أحيانا وتذعن له حينا . يظهر ذلك فى حياة الأدب عامة . وفى حياة المعنيين بالإذعان والمقاومة على وجه خاص . ومن ثم فقد ظفرت حياة الأدب بشئ من التطور والانتقال ، ووسعت أغراضا جديدة ، وأحيت مثليات قديمة . وأصبحت فى صبا غض تتفتح فيه المدارك وتتهيأ لما عسى أن يتكشف عنه عهد الشباب من دوافع البعث والإيقاظ . وإذن فقد صار لها امتداد مكفول يأتيها من نفسها حينا ، ومما حولها حينا آخر . ونحن حين ننظر إلى عهود الخلفاء الراشدين بحسبانها امتداداً لعهد النبوة . كذلك نرى الأدب فى ظلها امتدادا لذلك العهد أيضا . ولا نكاد ندع هذه العهود إلى عصر بنى أمية حتى يدخل الأدب مرحلة الشباب من حياته.وهنا يقوى حقا قوة لم نر مايقرب منهافى سائر المراحل والعهود. وإن لم يسع من الأغراض ما وسعه فى العصر العباسى بعهديه أوله وثانيه . فالسلائق كعهدها من قبل غنائية لم تتغذ بضروب الثقافات ، ولم تصبح رواسب عقلية كما سنرى فيما بعد . ولكنها تصدر عن تلك النفس العربية السمحة الكريمة، نازعة إلى مثل عليا هى جماع الخلال الرفيعة للعرب فى الحب والأدب والسياسة والاجتماع

أما اللغة فقد نالها غير قليل من التطور والصقل والمرونة . ذلك لأن العربى فى عهود اللغة الأولى كان يحس فى اللفظة الواحدة شحنة عاطفية وجدانية . وكانت صوتية اللغة تصور له المدلولات تصوراً ليس إلى مثله من سبيل فى زمننا هذا إلا بالجمل الفضفاضة والعبارات، فلو أن عربيا رأى حية ولم يكن عرف اسمها من قبل، ثم ذكرت له لفظة الأفعوان وهو جاهل بها أيضا لوثبت إلى ذهنه صورة الحية التى كان قد رآها من قبل فيما رأى . فإن فى لفظ الأفعوان وهو يتلوى ويمتد فى النطق لدليل على ما يمتاز به من خصائص ومميزات . ولو ذهبنا نفترض أن قبيلة من قبائل العرب كانت تدعوه حنشاً ، وأخرى كانت تدعوه (الأرقم) . ثم عرض لفظ الحنش للأخرى فلا تلبث أن تدرك على نحو ما يراد بهذا اللفظ من مدلول . ذلك لأنه مصور لخصائص عديدة فيه . فاللفظ فى جملته مصور له وهو ممدود على النحو المعروف . أما الحاء فهى منه بمثابة الرأس . وأما النون تفيدنا دقة جسمه بحركتها المفتوحة وهى خارجة فى النطق مع أخويها الحاء والشين هوائية هكذا . وكذلك الشين فهى ربما أعطتنا مغازلة الشمس لجلده وهو يتألق ومضا ولمعانا

للكلام بقية

محمد غزان العمري

آلام فرتر

للاستاذ أحمد حسن الزيات

هى القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألمانى

صور فيها : عواطف الشباب فى وقت نزوعه إلى الحب وولوعه بالجمال واتحاده مع الطبيعة ...
وقد قال عنها لصديقه (أكيرمان)

« كل امرىء يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن (آلام فرتر) إنما كتبت له خاصة »

ترجمتها العربية تتفق مع أصلها فى قوة الأسلوب ودقته وأناقته وجماله ... وهى مثال للترجمة الأمينة التى تنقل الصورة والفكرة وما يقوم بهما من الروح والخيال والعاطفة ...

طبعت خمس مرات وثمنها ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد